اللغة البولندية

وتاريخها

حسين المهدي غنام

لايجد الباحث في الادب البولندي شعراً اسطورياً للبولنديين في العصور المتقدمة جداً أي قبل سنة الف للميلاد ... وكما انك لا تجد أبطالاً من أبطال البولنديين الشعبيين في تلك العصور الغابرة مجسدوا في شعر من ذلك النوع ، كذلك لا تجد اثراً من آثار الترجمة لقصائد القرون الوسطى التي عالجت بطولات ومغامرات آرثر أو شارلمان، أو هكتور أو الكساندر ذائعة في تلك القرون ... وغيرها من أدب الفروسية . ذلك مع انك تجد شيئاً من مثل ذلك في آداب بوهيمية ، وهي اللاصقة لبولندا غير ان ما وصل الى الباحثين عن تلك الفترة استخلص من أقوال بعض المؤرخين الذين أرخوا باللاتينية ، أمثال : جالر، كادلبك ، بجمفتال ، دلوجوش

يقول أول هؤلاء انهُ يوم موت بولسلاس الشجاع ، كان هناك تجمع عام

ويحدثنا بيسكي ، مؤرخ القرن السادس عشر — وقد كتب باللغة البولندية — انهُ لما عاد كازيمير الاول الى بولندا قابلهُ الشعب وحياه بأغنية مطلعها : مرحباً ، مرحباً بالسيد العزيز

وهنالك أغانٍ غير هذه الاغنية وجد بعضها في مكتبة زويتسكي ، ولكن كان من الصعب تعيين تواريخها . على أن أقدم ترنيمة بولندية هي ترنيمة موجهة الى العذراء ، وقد اتخذت أيضاً كأغنية من أغاني الحرب

وأقدم مخطوط لهذه الاغنية تاريخه سنة ١٤٠٨ ، وكان محفوظاً الى عهد قريب في مدينة كراكوف التي كانت قديماً أعظم مدينة بولندية علماً ومدنية وحضارة . وكانت عامة الشعب تنسب هذه الأغنية الى القديس آدالبرت، ولكن يبدو انها مبنية على أغنية من بوهيمية

ولاشك ان كتابة الأدب البولندي بدأت باللغة اللاتينية ، على نحو ما بدأ الادب الانكليزي وغيره من آداب الامم الأخرى في عصورها الاولى . وهنا نرى ان الاكثرية من أدباء البولنديين وشعرائهم ومؤرخيهم من رجال الدين مالوا أدباء الانكليز وغيرهم من شعوب أوربة

أما تاريخ بولندة الوطني فيبدأ مع تاريخ الكاثرة الوطني تقريباً، أي في القرن السادس عشر وأقدم من كتب باللاتينية في أدب البولنديين [illegible] الذي يقال انهُ عاش

سنة ١١١٣ وقد قال فيه بعض المؤرخين انه رجل فولمي، وبذلك عرّفه الاستاذ بروكنر البرليني، وقد جاءت في أصل هذا الرجل تأويلات أخرى، ولكن المحقق انه كان غريباً غير بولندي. والتاريخ الذي وضعه هذا الرجل مكتوب في أسلوب شعري خالص، وقد كان عالي المنزلة. يدل على ذلك ما ذكره الكثيرون من قدماء المؤرخين الذين تلوه

وقد تبع جالس من المؤرخين ثلاثة آخرون حذوا حذوه، هم ماتيو خولقاء فنسنت كادلبك، مجخقال، وكان الأولان مطرانيّ مدينة كراكوف، والثالث قسيس مدينة برزن

وظلّ فنسنت كادلبك مدة طويلة معدوداً في خير الكتّاب الشعبيين للتاريخ البولندي وكان مثله في ذلك مثل ڤرجيليوس هاجك في بوهيميا، فقد كانت له قوة عقلية خارقة وجاذبية في كتابته تحبب حتى الاساطير البعيدة والاقاصيص الخرافية الهائلة الى نفوس الشعب الذي ظلّ ينظر اليه زمناً طويلاً كسند معصوم من الأخطاء، فأقبل على قصصه وأنبائه بشغف النهوم. ولكن قصصه وأساطيره تلاشت قبل نشوء النقد الادبي الحديث فلم تعرف قيمتها ولا حددت مكانتها من أدب مواطنيه الآخرين أو آداب الامم الأخرى

أما كتاب التاريخ الذي وضعه باللاتينية فقد ترجم في نهاية القرن التاسع عشر الى اللغة البولندية بوساطة كاتبين بولنديين لم يعلنا عن أنفسهما، وقد أضافا هذه الترجمة الى طبعة الكونت يسيشز چتسكي. وكان كادلبك في نشأته رئيساً لمدينة ساندومير، ثم مطراناً لمدينة كراكوف. ومات راهباً سنة ١٢٢٣. وبعد موته أنزله الشعب منزلة القديسين

وعلى أية حال فان مادة كتابه عظيمة القيمة كتاريخ لبلاده، وان كانت اللغة اللاتينية التي استعملها لغة منكرة منفّرة جافة. ولا نجد بعد ذلك، حتى القرن الرابع عشر، نماذج محفوظة من اللغة البولندية، إلاّ قليلاً من التعابير والشروح، وبعض أسماء الاشخاص أو الاماكن، وهذه اللمحات القليلة جمعها بعناية كبيرة الاستاذ (بودوان دي كورتناي) في كتابه (اللغة البولندية حتى القرن الرابع عشر). وفي ذلك القرن ظهر بعض المؤرخين الآخرين مثل مارتنوس بولونس، وجون الشارنيكوفي. وهؤلاء استعملوا اللغة اللاتينية كذلك

ويبدو ان المزامير ترجمت كذلك الى البولندية في القرن الثالث عشر، فقد جاء في بعض كتب التاريخ البولندي القديمة ان القديسة كونغند، من ساندتش القريبة من كراكوف والمتوفاة سنة ١٢٩٢، كانت ترتل عشرة مزامير باللغة القومية قبل أن تترك الكنيسة

وفي سنة ١٨٢٦ كشف القديس فلوريان في لتر باتما أقدم نموذج للغة البولندية وأكبر ما عثر عليه حجماً من ذلك النوع في هذه اللغة. وهذا الاثر له اسم غريب، وهو (كتاب مزامير الملكة مرجريتر). ويبدو ان هذه المخطوط يرجع الى منتصف القرن الرابع عشر، وقد وقف على مراجعته باذلاً عنايته الكبيرة في ذلك، الاستاذ سوريج من برسلو، ثم طبعه في

يرون سنة ١٨٨٣. وكان الظنون انها نسخة من تأليف قديم. وتظن فئة ان تسمية ذلك الكتاب مأخوذة من اسم مرجريت الزوجة الاولى للملك لويس المتوفاة سنة ١٣٤٩، ولكن المؤرخ كارو يميل الى ان ذلك الكتاب بعث الى ابنة الملك ميري. والأثر الهام الثاني في اللغة البولندية هو انجيل الملكة صوفية الذي كان يسمى في الأصل انجيل شاروسياتاك، وهو مكان في الجزر كان يحفظ فيه ذلك الكتاب. وهذا الكتاب بحالته تلك، غير كامل لانهُ يحتوي اسفار موسى، يوشع، راعوث، وملاخي. وفيه فقرات من ثلاثة كتب اخرى، وورقة وجدت منذ نصف قرن تقريباً في مكتبة جامعة برسلا وتضم جانباً من النبي ارميا

ويقال ان هذا الانجيل كتب لاجل الملكة صوفية، الزوجة الرابعة للملك لادسلوس ياجيللو، حوالي سنة ١٤٥٥، وقد وقف على نشره مؤخراً الاستاذ (مالتسكي Maleckі) مؤلف قواعد اللغة البولندية القدير. وبذل جهوداً عظيمة في طبع ذلك الكتاب

ومن المحن التي ألمت ببولندة القديمة، فقدانها كثيراً من المخطوطات العظيمة القيمة، ولم يكن حظ بولندة الحديثة — وهي جمهورية بأحسن من حظها وهي مملكة، فقد أحرقت مكتباتها ونهبت تحفها ودمرت مدنها وآثارها واندثر الكثير من معالم مدنيتها القديمة. ومن هذه الآثار القيمة ما حققهُ الاستاذ نهرنج من علماء القرن التاسع عشر. فقد ذكر انهُ وجدت في القرن الثامن عشر في مكتبة تشنتوخوفة طبعة جميلة لطيفة من الكتاب في سبعة مجلدات متتابعة باللغة البولندية Czestochow واستدل على ذلك ببعض رسائل لياتشكي Janocki فقد وجدت دار للطبع في مدينة كراكوف الشهيرة وذلك سنة ١٤٧٤ تقريباً، ولكن أول كتاب في اللغة البولندية طبع في سنة ١٥٢١ في مطبعة ايرونيمس وكان عنوان ذلك الكتاب «أحاديث الملك الحكيم سليمان». وانتشرت بعد ذلك تآليف أخرى

وقد كشفت في اواخر القرن التاسع عشر آثار قديمة من اللغة البولندية، وكلها ذات فائدة ولذة للباحث في منشأ هذه اللغة النبيلة والتي كادت تهمل وتلمحي في الأزمان الغابرة

ومن تلك الآثار سيرة القديس (يوفراكسي) — Zywot S. Eufraksy وقد تولى نشرها المسيو كرايفسكي بوارسو ويرجع تاريخها الى سنة ١٥٢٤

واللغة البولندية من اللغات السلافية، فالبولنديون من الفرع الغربي للجنس العقلي

ومع ان الكثيرين من المؤرخين وعلماء اللغات يعدونها من اللغات الجميلة، فإن نطقها لا يخلو من صعوبة كبيرة للغرباء عنها ولاسيما نطق أعلامها وأسمائها، ونعتقد ان هذه الصعوبة هي جامع الصعوبات في اللغات الروسية والألمانية والبوهيمية واللتوانية التي تأثرت بها تلك اللغة القديمة، واللغة اللاتينية التي تركت فيها عديداً من الكلمات والاصطلاحات وما زالت

تستعمل فيها ... كما خالطتها كلمات المانية كثيرة . أضف الى ذلك غرابة نطقها نفسها ، فهم يستعملون مثلاً حرف s تحته نبرة فينطق عندهم كما عند الفرنسيين في كلمة Bon ، وحرف cz معاً ينطقان تش ، وحرف J ي ، وحرف ś فوقه نبرة يستعمل واو الضم الثقيلة كما عندنا ، وحرف RZ معاً كما عند الفرنسيين في كلمة Jour وحرف SZ معاً ش ، وحرف W ف وحروف SZCZ مجتمعة معاً تنطق شتش ، وحرف E وتحته نبرة ينطق (إنْ) ، وغيرها وغيرها . ولعلّ شاعرهم كازيمير برودزينسكي عنى هذه الصعوبة في اللغة البولندية اذ يقول مفتخراً بها — « ليبتسم كل بولندي كبرياء إذ يسمع أحد سكان ضفاف نهر السين أو نهر التيمز ، يسمي اللغة البولندية لغة جافة ثقيلة . ويسمع وهو راض مغتبط ، في وقار الحكم العدل ، أجنبيًّا وهو يحاول في مرارة ان ينطق الكلمات البولندية العسيرة — كما يحاول مرهف رخو الاعصاب خائرها ان يرفع درعاً رومانية قديمة — او وهو يجتهد في لغو ان يقوّم لغة الرجال ولكن بلهجة الاطفال اللائغة الضعيفة

« ولطالما كانت الشجاعة من ميزات جنسنا ولم نفقدها ، ولطالما بقيت اخلاقنا وآدابنا على كاملها فلنفخر بهذه الخشونة بل هذه الرجولة ، في لغتنا

« ان لها توافقها ، وانسجامها ، وسحرها ، وموسيقاها التي تشبه همهمة شجرة سنديان عتيقة عمرها ثلاثمائة سنة ، لا صفير انبوبة واهية ضعيفة تميل مع الريح في أي اتجاه »

على ان التجاء الأدباء البولنديين الى الكتابة باللغة اللاتينية في عصورهم الأولى لم تنشأ من هذه الصعوبة ، فالاوربيون يعدون لغتنا العربية — مثلاً — لغة صعبة جدًّا بل عسيرة على افهامهم ، ولكنا لا نتركها لكتب بغيرها من اللغات في عصرنا الحاضر ، فكل شعب يستسهل لغته مهما صعبت ، كأهل الصين مثلاً . ولكنها كانت عادة كل الكتّاب والشعراء في تلك العصور القديمة ، في أوربة عامة ، وهؤلاء هم كتّاب الانجليز وشعراؤهم في تلك الأجيال ، وغيرهم من الشعوب الأخرى لا يكتبون الاّ باللغة اللاتينية ، وقد ظلّ الانجليز يستعملونها حتى العصور المتوسطة ، لانها كانت اللغة الدولية تقريباً ، وكانت جميع شعوب اوربة تتعلمها لانها أم لغاتهم جميعاً ... وبخاصة في الكنائس والديورة ، وبين رجال الدين هناك نشأت الطوائف الاولى من الكتّاب والشعراء والمؤرخين ...

ولم تنتعش اللغة البولندية القومية الاّ في نهاية القرن الخامس عشر ، فقد ظهرت في بولندة فئة من الكتاب والشعراء والمؤرخين استعملوا لغتهم البولندية القومية ، غير أن هذه النزعة لم تلبث ان ضعفت بظهور فئة أخرى من الأدباء والمؤرخين عادوا الى الكتابة

باللاتينية ، فكانت هذه النكسة من المساوىء الاجتماعية في اواخر القرن السادس عشر ، وان كان هذا لم ينتقص من الثروة الأدبية والفكرية التي عادت على الأدب البولندي منها . ولم يمنع هذا ظهور كتّاب مبرزين استعملوا البولندية في كتاباتهم بأسلوب رفيع ، حتى كان القرن السابع عشر ، ولعله كان أسوأ قرن مرّ على بولندة في العصور الوسطى ، فقد تحالفت عليها القوات الثلاث واقتسمتها ، بعد اضطرابات سياسية وأدبية واجتماعية اكتنفت الحياة البولندية كلها . وكان من نتائج تلك الاضطرابات تذبذب ادبائها وشعرائها تأثراً في تراوح الكتابة بين اللغتين البولندية واللاتينية ، فقد كانت اللاتينية حتى ذلك الحين لغة العلية والنبلاء ، الذين جنوا على بولندة جناية كبيرة[1] ، لا يهتمون بلغة الشعب ، ولا بالأدب الذي يكتب بهذه اللغة اطلاقاً . . . وكان الكتّاب عامة ينحون في كتاباتهم — بأي اللغتين — مناحي البلاغة البيانية والزخرف والبديع . وكان من نتائجها أيضاً ، ومن نتائج نظام التعليم الذي أدخله (الجزويت) في بولندة ، أن انحطت لغتهم القومية مرة أخرى واختلطت باللغة اللاتينية وداخلتها كلمات كثيرة غريبة شوّهتها وما تزال تشوّهها الى الايام الحاضرة . فتأثر الأدب البولندي بل الحياة البولندية كلها بالطابع الفرنسي في القرن الثامن عشر لكثرة اختلاط البولنديين بالفرنسيين ، فأخذت اللاتينية تضمحل في بولندة قليلاً قليلاً ، كما اضمحلت في غيرها من الامم ، الى أن أمست لا تستعمل إلاّ في بعض المناقشات الخاصة بين الافراد ، كلغة غريبة ، وأقبل الأدباء والشعراء على الكتابة بلغتهم القومية ، ولم يشذ إلاّ القليلون عن ذلك في كتابة قصيدة أو مقالة باللاتينية ، كما فعل شاعرهم الأكبر متسكيفتش ، في قصيدته التي وجهها الى نابليون ، ولكن غرضه كان أن يقرأها الامبراطور بلغة يدركها ، لان القصيدة كانت تملقاً وطلباً لانصاف بولندة المغلوبة ، ولم تكن من أعمال الشاعر الجيدة

وهكذا عاد البولنديون الى استعمال لغتهم ، وان حاول الالمان جهدهم في أن يغيروا لغة القسم الذي كانوا يحتلونه منها في القرن الثامن عشر خاصة ، فأفلحوا بعض الشيء من طريق العنف في صبغه بصبغتهم ، كما سنبين ذلك في فصل آخر . ولكن البولنديين عامة التزموا لغتهم القومية منذ ذلك الحين . وظهر كتّاب وشعراء عديدون يكتبون بالبولندية ، وان كان معظمهم مجهولاً حتى في أوربة نفسها ، فمنهم من يضارع أبناء عمومتهم الروس

ولعلنا نتناول بعض هؤلاء الادباء والشعراء في مقالات أخرى

---

(١) سنبين ذلك في مقال آخر